



عواطف الحياة

ووجوب الحرص عليها^(١)

عنوان المناظرة هو: «يجب أن نحرص على عواطف الحياة» وهل نستطيع أن نجد شيئاً غير العواطف، يستحق الحرص عليه؟ إنني لأنظر للطبيعة الانسانية، فأجدها قبل أن يقوم علم النفس على دعائم ثابتة، قسمت إلى ما يسمى بالأمزجة Temperaments ولا يزال بعض علماء النفس المحدثين يقسمون الخصائص الانسانية الاصلية Imate إلى أنواع من هاته الأمزجة، وإعنا على شكل عليّ أثبت وأدق .

اليكم على سبيل المثال بعض هذه التقاسيم: تقسيم هياتز: عصبي، حساس، بارد، غضوب ناثر، على الحيات، غامل... وقد نال هذا التقسيم شهرة خاصة، وميزته أنه يثني الطبيعة الانسانية على العاطفة ودرجاتها، ولا ذكر للعقل والتعقل فيها .

وقد كان التقسيم القديم مشابهاً لهذا، وتعرفونه فهو دمري، وبارد، وسوداوي، وغضوب، وأبولونيين، وديونيسيين، أو إلى فريق إلهي العاطفة، وإلى فريق جامع العاطفة... فالتقسيم حتى عند نيثشه قد بنى الطبيعة الانسانية على العاطفة ولم يشر إلى العقل...

ومن الطريف أن أذكر رأي إيزروجنش فقد قسم الأول الناس إلى لونيين وشكليين . أما اللونيين فتمتص تقومهم بصورة بلونها، بينما الشكليين يقفون على الهامش، ويأبرون الاندماج... أي يظل آتالون غريباً عليهم... وتقسيم جاينش لا يخرج عن هذا، بل يوضحه. فهو يقسم الناس قسمين: قسم يجمع، وقسم يفصل Integrate and desegregate... types .

فالاول يمتص المدركات الحسية كلها ويتدمج فيها، والثاني يقف بمفردها أو عليها

(١) مناظرة ألقاها الدكتور الدكتور ابراهيم داني

وأما يونج فإنه سيمه المشهور في كتابه المعروف Psychological types فيقسم الناس إلى باطنيين Introvert وخارجيين Extrovert . ويقسم الباطنيين أربعة أقسام : من حيث التفكير ، والشعور ، والحساسية ، والالهام ، والخارجيين إلى نفس الأقسام . فيلاحظ أن التفكير في النوعين يمثل اثنين من ثمانية أقسام . والباطني يدين بما يجيش في ذاته ، والخارجي يدين بما يتلقاه من العالم الخارجي

من هذا يتضح أن الاختلاف في الطباع البشرية يقوم على اختلاف العواطف أو بالأصح على طريقة استعمال هاته العواطف . فإذا تقدمنا في علم النفس الحديث ، وجدناه ينير مسائل فلسفية يريد أن يضمها على أصل ثابتة . ما هي العاطفة ، وما هو العقل ؟ وهل هناك عقل حقيقة ؟ إن العاطفة لاهلك في وجودها بتاتا بدليل أن الانسان لا يستطيع أن يشاهد شيئاً أو يلمس شيئاً بدون أن يكون له كنه آخر غير مجرد الواقع الملموس ذلك الكنه الآخر هو ما نسميه في علم النفس بالشعور ، أو الاحساس Feeling طيباً أو رديفاً ، ساراً أو غير سار ، وهو أول خطوة نحو رأي عمل . فإذا استطع ذلك الشعور بتخيرات بدنية كالسراع النبض ، أو الارتجاف ، يسمى انفعالات ، فإذا تجمعت الانفعالات حول شيء معين سميت عاطفة ، فيشترط إذن في العاطفة أن تنصب على هدف معين بخلاف الشعور أو الإحساس فقد يكون شيئاً غامضاً ، وهناك من العواطف ما هو أولي ، ومنها ما هو مركب ، ومنها ما هو مشتق ، فالأولي : كالغضب ، والمركب كالحب ، أو الرعب ، والمشتق كالأمل . . . فيلزم في العاطفة إذن (١) : تغيرات فيسيولوجية (٢) أن تنصب على هدف معين (٣) أن تكون مستغرقة لكل الكيان أي ان تكون جوعاً كاملاً ، أو حباً كاملاً ، أو هوقاً كاملاً

ولقد سمي علم النفس في أول الأمر علم الروح ، ولما كانت الروح متكوكة في أمرها ، سمي علم النفس بعلم العقل ، ووجد أن العقل — بالرغم مما بذله الفلاسفة أمثال ديكارت في إثبات وجوده — لا يزال شيئاً مجهولاً ، ولذلك سمي علم النفس ، أو النفس بالأكبر — على آثار ذلك « العقل » التي تظهر في السلوك الانساني ، Behaviour ، وأريد أن أذكركم من أن تعتقدوا أن هذا هو المذهب « السلوكي » الذي يصر من النفس الانسانية وينكر عليها كل شيء إلا السلوك الآلي المحض

يعني علم النفس بدرس كيفية السلوك عند كل منا ، والمبتدئون فيه يعرفون أن السلوك عند الجميع يتلخص في المراحل الآتية : الشعور ، العاطفة ، استيقاظ الغريزة ، التفكير ، العمل . ولقد كان هذا التقسيم معروفاً للفلاسفة من قديم . وكان الناس في رأي أ فلاسوفون يقسمون بحسب ما يتقنون من ذلك ، أو بمقدار ما يحتفظون بترتيب ذلك البرنامج . فإن الفلاسفة مثلاً يتقنون عند مرحلة العمل ، والشراء لا يتجاوزون الشعور ، والعاطفة ، والغريزة ، والقراء والفائحون يتخطون مرحلة التفكير ، أو يختصرونها ...

ولقد وصلنا فيما سبق عند شرح معنى العاطفة ، فعلمنا الآن أن لشرح علاقتها بالغريزة . فيمكن أن نقول أن العاطفة هي الطاقة البشرية Energy ، أي الفحم أو البنزين الذي يسير الآلة أو القاطرة . وأما الغريزة فلاصقة بها ، وهي التي تشعل النار فيها ، وكذلك هي التي تهيم لها طريق العمل ، وتأخذ بيدها . فلكل انفعال غريزة تصاحبه ، فغريزة العاطفة على الذات مصاحبة لعاطفة الخوف ... وهكذا ... ولقد تناقش علماء النفس وتحدثوا طويلاً في كيفية حدوث العاطفة ، فأكثرم ردّها الى حمل فيسيولوجي محض . ولقد جاء قول ويليم جيمس عميراً حين قال : نحن لا نسكي لاننا نحزن ، بل نحزن لاننا نسكي ... يعني بذلك ان العمل الفسيولوجي المشغل في إفراز الدموع هو الذي يسبق عاطفة الحزن . والواقع انهما متلازمان ، بحيث لا يمكن التثبت من أيهما حدث أولاً ، ولكن جيمس يريد أن يؤكد أهمية العمل الفسيولوجي على كل حال ... وإحداث العاطفة على هامته المصورة الميكانيكية ، أدّى الى قيام نظريات تمحو وجود العقل وتجعلنا نستعني بالتفسير الميكانيكي عن وجوده . فذا سئل أحد العلماء عن الامومة التي تحمل الدجاجة تحتضن البيضة . قال : ليس هناك ما يسمى الامومة ، فان الاتهاب الذي في شرح الدجاجة تحتضن البيضة . قال : ليس هناك ما يسمى الامومة ، فان الاتهاب الذي في شرح الدجاجة هو الذي يدعوها للرقاد على البيضة ، بدليل أنها معها عصت يمكن أن نجبرها على الرقود بقليل من التقليل على النرج . ا . قيل وما هي الغريزة ، أجابوا : انه عمل المكاسي محض ، بدليل ان حركات الطير المذبذب يصعب أن نعرف أي ألم ، أم حركات عضلية دفءاً عن النفس ، قيل : وما هو الكلام أليس له اتصال بالتفكير ؟ قيل كلا ؟ بل التفكير حركة حاضرة عضلية صامتة subsonic words قيل : وما الارادة ، هل تنكرون وجودها كبدليل على وجود ما يسمى العقل ... ؟ قيل : كلاً ذلك ان صانعت الكبر على حده

المخ الذي يرفع التبراع ، قال لك رافع الذراع إنه « يشعر إنه يقوم بذلك من تلقاء نفسه ». قيل : وما هو العقل إذن ؟ قالوا : أما هو شعور المادة بنفسها ، Awareness أو بعبارة أخرى «وعي المادة بوجودها ». أجاب آخرون : وما رأيكم في الوعي الباطن ، أجاوبوا : إن هذا يختلف اختلافاً بيناً عن العقل الراعي . بينا الوعي بتفكيره وإرادته وتعليله مشكوك فيه ، فإن العقل الباطن هو مركز العاطفة والفرزة ، وهو الذي يسيطر على بطن من أفعالنا العادية ، ولا سبيل إلى إنكاره بتاتا كدليل أن الانسان يمكنه أن يرى بعقله الباطن إذا أغلق عينيه .

ولقد وصف جود القاطرة الانسانية وصفاً جميلاً مقنعاً . قال : ان القاطرة الانسانية هي وقود (العاطفة) وسائق (الذات الانسانية) وكشاحة (الارادة).

ونحن لا نعرف ماهي « الذات » بالضغط ، وأما نحن نعلم انها هي التي تشمل الوقود وتضبط الكشاحة أي (الفرملة) . ولكن الآلة يمكنها أن تعمل بمجرد اشغال الوقود ، والعكس مستحيل . قيل : ولكن القاطرة بدون السائق والفرامل تخرج عن الخط وتحطم ما أمامها . قال المتكروون للعقل ، ان التفكير ما هو الا عادات نفتادها ، وخطط ترسم في النفس وتتخذ سبلاً محددة معينة .

ولكن المحدين قالوا بل إن هناك من الاشياء ما لا تستطيعون تمسيهه ، وذلك هو ان العقل الذي تكرونه يصنع أربعة أشياء لا تستطيعون أن تعلقوا وجودها بدون أن تؤمنوا بوجوده ، ألا وهي ربط الأشياء ، واختيارها ، وترتيبها ، والاستنباط منها . هذه الخصائص الثلاث هي التي تميز الانسان من الحيوان ، أي تميز العقل الكامل من بضعة خصائص حيوانية يبدو عليها تماثيل العقل وليست منه .

إن الذي أدنى إلى إنكار العقل هو «درون» فقد كانت نظريته تقوم على السبب والمسبب . فلما جاء تلميذه رجسون أنكر ذلك الترتيب الميكانيكي ، ولكنه أعطى الأفضلية للعقل ، وأما نثي ، فوق العقل يسمى البصيرة . والبصيرة بلا جدال تنبع من الفرائز ، فهي لصيقة بالعاطفة . ولقد أكد رجسون ، وأنا من رأيه ، أن الانسان اخترع العقل كما اخترع الكلام ، لكي يمكنه التعديد والاتكاء في العالم السريع الدوار المتلاطم ، كالتماثل لا بد أن يقطع الثوب لكي يحبسه ، وكما نضع ثيابنا على المشاجب لكي نحميها في اليوم التالي . وقد اخترعنا

الكلام لنفس السبب ، أي لكي نميز هذا الشيء من ذلك ...
وكيف جاء العقل ؟ ما العقل غير نوع مخصص من الفريزة ، ووجه من أوجهها المديدة ،
ميزته ميزة الترجمان أو دليل الآثار. أما كون الحياة تسير على هذا نمطاً . وأما كون النفس يسير
على هدى العقل فتحليل .

أما كون العقل أماد الانسانية نمطاً ، لأنه معرفة العملي ونسب بالانسانية في ناحية ،
هي فهم أسرار المادة ، ووقوف به في ناحية أخرى ، وهي فهم أسرار النفس . لأن العقل
ليس السبيل إلى فهم النفس وأغوارها ، فصرنا اليوم كما ترون مادة تتقدم وروحانية تتأخر .
ولقد تدخل العقل العملي في الأدب فإتلاؤه بالتحليل و « التفصيص » . فعمل الكل الجليل
أجزاء منفصلة مهلهة كهيئة انتشاريح .

تسألونني وكيف نمنع العاطفة اذا جمحت ؟ أتركها كالجواد الذي لا شكيمة له ؟
أقول ان العواطف تختلف . فأغلب العواطف كلما زادت حدة ، قل الفعل الذي يعقبها ،
ما عدا عاطفة الحب التي تزداد ميلاً إلى العمل ، كلما زادت اتفَعالاً . والطرق التي تلجم بها
العاطفة هي :

- (١) إيجاد عاطفة تجاه عاطفة . كالطير ، علاجه الخوف من كلام الناس .
- (٢) التوقف ذلك الموقف العملي الذي ترحته Rationalisation أي التعليلية ، وهو
يتعود التحليل في كل موقف ، وانسرفي ذلك لأن قلب العقل على العاطفة ، بل في أن كل
شخص يتدمج ويبدى اهتماماً « بشرح الموقف » يهون عليه الموقف .
- (٣) مجتهد في الاتعمال Detachment ، وهي طريقة شرقية ، أي ان الانسان يتخلص
من متاعب الجسد والأرض بالاتجاه إلى الله . وان الصلاة والوضوء فيها ذلك الاتفعال
الذي أخيه ، والذي يسبب هدوء القلب واخمثنان البال . أي لأؤمن في الحياة بفائدة العقل
الإكبر أو من بفائدة الملح للحساء . ولا أنسى قول جيت له ليهذه بكرمان :

يجب أن « تفكر بالقلب » ...

وخاتماً أرجو أن أكون قد وصحت وجهة نظري كما أحب والسلام .

ابراهيم ناجي